الأديب
يوسف ناصر

يوسف ناصر: أديب عابر للأنواع

منير توما

سيرته :

يوسف نعمان ناصر شاعر وأديب فلسطيني، ولد عام 1947 ويقيم في مسقط رأسه كفر سميع في الجليل الأعلى. حاز على شهادة الماجستير في اللغة العربية والأدب المقارن من جامعتي تل أبيب وحيفا، وبدأ العمل محاضرًا للغة العربية في جامعة القدس منذ سنة 2009. يعمل محاضرًا للغة العربية أيضًا في مراكز تأهيل معلمي اللغة العربية في المدارس الإعدادية والثانوية في البلاد. درّس اللغة العربية أربعة عقود في مدرسة ترشيحا الثانوية (قضاء عكا) حيث خرج إلى التقاعد في نهايتها. وهو إلى ذلك عضو اللجنة التنفيذية للطائفة الأرثوذكسية في البلاد، وأحد أبرز شخصياتها المعروفة. انتخب عضوًا في رابطة الأدباء والكتاب الفلسطينيين في الناصرة عام 1987. كتب في مختلف الصحف العربية داخل البلاد وخارجها، وشارك في مؤتمرات وندوات أدبية مختلفة. له أعمال أدبية عديدة منها :

ومضات وأعاصير (شعر). عكا، 1980.

ضريح الحسناء (رواية). عكا: مطبعة أبو رحمون، 1981 .

ورق ورحيق (مقالات أدبية اجتماعية). رام الله: مؤسسة الأيام، 1987.

قلائد العقيق (مقالات أدبية اجتماعية). بيروت، 2011.

حاز على شهادة تقدير في الأدب من المنظمة العربية للتنمية التابعة لجامعة الدول العربية لمشاركته، بدعوة من المنظمة، في مؤتمر الإبداع الذي عقدته المنظمة في القاهرة عام 2000 .

نال "جائزة ناجي نعمان الأدبية الاستثنائية" في لبنان عن كتابه "ورق ورحيق" 2010، وجائزة "إنجيليك باشا" لتمتين الروابط الأسرية 2011، عن كتابه "قلائد العقيق". قلّده بطريرك المدينة المقدسة "وسام القبر المقدس" تقديرًا منه لإقامته كنيسة فخمة، ومركزًا

ثقافيًا خدمة للعلم والمعرفة بين أبناء قريته، وضاحية جديدة للأزواج الشابة في كفر سميع وذلك بتوكيل من بطريركية الروم الأرثوذوكس في القدس.

كما منح تقديرًا لشخصيته وإنجازاته المذكورة شهادات تقديرية من دائرة الشؤون المسيحية في السلطة الوطنية الفلسطينية، ومن مؤسسات وشخصيات وطنية وقيادية في البلاد[1].

شعره :

للشاعر يوسف ناصر ديوان شعري بعنوان "ومضات وأعاصير"، هو باكورة إنتاجه الأدبي، صدر عام 1980 من مؤسسة الأسوار في عكا، ويشير في مقدمة الديوان إلى أن أكثر قصائده نظمها في المرحلة الثانوية، لذا كان يرغب في تسميته "عصير الصبا"، وقد جرى فيه على الطريقة التقليدية في اعتماد الوزن والقافية.

تمتاز قصائد هذا الديوان وقصائد الشاعر الأخرى بالخيال والموسيقا، تسندهما العاطفة المفعمة بروح الحسّ والذوق والبراعة. يتخذ الشاعر لنفسه موسيقا ساحرة، تعتمد على صياغة عربية أصيلة تستحوذ على قلوب القرّاء والسامعين لشفافية شعره ورهافة حسه، ويزخر قلبه بالمشاعر الوطنية في صدق بعيدًا عن التحزّب والتفرّق، انطلاقًا من ارتباطه بأرضه ووطنه، ففي قصيدة "الجليل" (ص 29) يعكس يوسف ناصر هذه المعاني بحيوية ووطنية صادقة:

نــادِ الجليــلَ وقــل يــا درّة الــوطن ... أفدي ثراكَ ولو قد كنت في الكفنِ
الـــله أعـــبده مـــن بعـــد تربتـــه ... فاحـــكم علـيّ بـــأني كافـــر وثـــني
مروجـه غرسـت بـالفجر مـذ خُلقـت ... جبـــاله ولـــدت مـــع مولـــد الزمـــن
كـل الوثائــق تبقـى تحــت أرجلــه ... قبرًا سيبقى لخطب الدهر والمحن

[1] راجع تظهير كتاب " ورق ورحيق " المشار إليه، بالإضافة إلى مقابلة شخصية مع الأديب.

وفي قصيدة بعنوان "غضبة"، يردّ فيها على دعوة وصلته من إحدى المنظِّمات العنصرية في البلاد، وتزيّن في عينه الهجرة، ويتغنى في القصيدة بجمال وطنه وبلاده، وتعلّقه الوطيد بالأرض، فيدعو إلى البقاء في الوطن رغم المعاناة، يقول فيها:

ردّ الرسـالة فوقهـا عنـواني   واكتـب عليهـا بعـض مـا آتـاني
مـا ألـف أمريكـا يعـادل حفنـة   مـن أرض يافـا أو ثـرى بيسـان
أو نسـمة رقّـت علـيّ شـذيّة   مـرّت بقلبي مـن ربـى الأوطـان

******

حملوا أبي في النعش يوم رحيله   وأنا الدموع تسيل من أجفاني
فسمعته مـن تحـت ألـواح البلى   بـالأرض والزيتـون قـد أوصـاني

ويخاطب الشاعر في هذه القصيدة أولئك الذين هاجروا، يطالبهم بالعودة إلى أرض الآباء والأجداد ويذكّرهم بمدن وقرى بلاده الجميلة ويقول:

يـا مـن رحلـتم كيـف أنـتم والنّـوى   عـودوا خلعـتم بالرحيـل جنـاني
أنسـيتم بلـد المسـيح أحبّتـي   والطـور يركـع في الجليـل الثـاني
أنسـيتم سـرب النجـوم على الربى   يغفـو بوكنتـه علـى الأغصـان
أنسـيتم حضـن الـبلاد وصـدرها   شـمم الجبـال ونفحـة البسـتان
وقرى الجليل مع الخمائل قد زهت   وقفـت تُطِـلّ علـى ربـى لبنـان
أوصـيت أهلي إن نُعيـت ليصـنعوا   مـن غصـنها التـابوت للجثمـان
والرامـة الحسـناء، رشـدي ضـيّعت   مـن وقفـة في ملعـب الصـبيان
لا تعذلـوني إن جُننـت بحبّهـا   مثـلي يجـنّ بمنظـر فـتّان
والكرمـل المحمـول فـوق غيومـه   عـن سحر حيفـا كان قـد أعمـاني
حيفـا الأبيـة يـا ثريّـا شـعبنا   وسـها الجليـل وشـعلة البلـدان
حيفـا الأبيـة جلّلـت تاريخنـا   بـأعزّ مـن نجبـت مـن الفرسـان
لا أدري كيـف الليـل يظلـم فوقهـا   وضياؤهـم فـيها بكـلّ مكـان
لـولاك حيفـا مـا ترعـرع شـاعر   أو كاتـب أو ناطـق ببيـان

ويتطرّق في القصيدة إلى ما لقريته كفر سميع في قلبه من محبة ويقول:

يـا قريتي.. يـا ديرتـي.. يـا فلـذتي..	يـا بلسـم القلـب الجـريح العـاني
ضمّي رفـاتي، حيـث فيك من الثرى	يغنـي عــن الفــردوس أيّ مكــان

(ص19)

وفي قصيدة "زيتونة" يعبّر الشاعر عن التواصل بين الأجداد والأحفاد من خلال الآباء في الانتماء للأرض والمحافظة عليها ويقول:

زيتونة من غرس جدّي بين أكوام الصخور
حقب طوال عمرها، تمشي على جثث الدهور
وترابها ما انفكّ يسمع وطء أقدام العصور..
كسرت يد الأرياح والأزمان والدهر المغير..
حنت الليالي ظهرها لكنْ تمرّ بها الطّيور..
وتقيم أعراس الربيع، وغصنها وكر النسور!!
قد جئتها ومعي "غياث" فلذتي، طفلي الصغير
طفل له سنتان يقضي الوقت في كنف السرير
قد راح يسعى كالرجال وخطوه خطو الكبير
وبخصره زُنّار فلاح بجبهته سطور
من بعد ما سرنا إليها وانتهى فينا المسير
من بعد ما جشّمته قطع المسافة في الوعور
علّمته ضرب المعاول حيثما تنمو الجذور!..

(ص19)

يحمل الشاعر يوسف ناصر في نفسه وفي قلبه أرضه وشعبه وأمّته، "ويزجّ كل ذلك في شعره حماسة عالية وإيمانًا نابضًا بالحياة، ورونقًا تعبيريًا رفيع المستوى"[2]

[2] حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي: الأدب الحديث، (بيروت 1986)، ص 535

وفي قصيدة أخرى من ديوانه بعنوان "هذا سرج الشرق يحمله الردى"، يرثي الشاعر يوسف ناصر الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، وتتجلى فيها عاطفته الوطنية ومشاعره القومية، يقول في أبيات منها [3]:

بكت الكنانة ناحت الأقطار	قوموا اندبوا قد ماتت الأحجار
يا أيّها النعش المليء عروبة	ما الموت أقوى إنها الأعمار
هذا سراج الشرق يحمله الردى	ليرى الظلام بنوره الأبرار
ذكر العظام ولا يضير مكانهم	فوق الثرى أو تحته.. سيّار
الدائم الأبدي ربّ خالد	والأنبيا وجمال والأدهار

(ص25)

نثره :

أ- الرواية: كانت رواية "ضريح الحسناء" أوّل أعمال الأديب يوسف ناصر النثرية الصادرة له، ويمكن تصنيفها ضمن المذهب الرومنطيقي، مع ما تتضمنه من لمسات رمزية في علاقة الحب الرومانسي التي ربطت نوال ومالك.

يقول مالك في صفحة 12 من الرواية:

"أحببت نوال حتى بلغ بي حبّها حدّ الهيام، فخالط لحمي ودمي!!

وفوق ذلك، أصبحت أعبدها، أقدّسها، آناء الليل ووضح النهار، يبقى رسمها يحوم فوق خيالي لا يبرحه، وصوتها في مسمعي لا يفارقه، وصورتها تسكن جفني لا تغادره، لتغرق في دموع اندلقت من أعماق الروح عبر السنين الطوال، تبكي نكبتي، وتندب مأساتي".

تتمثّل المأساة في هذه الرواية في اغتصاب ناظر الكلية (جارم) لنوال وانتحارها في أعقاب هذه الفعلة الشنيعة لجارم، الذي يوحي اسمه رمزيًا بالجريمة التي ارتكبها بحقّ الفتاة البريئة (نوال)، التي لم تنل ما كانت تصبو إليه وتحلم به من مستقبل زاهر في حبها

[3] د. محمود الربيعي، قراءة الشعر. (القاهرة، 1997)، ص 74.

الطاهر العفيف تجاه مالك، الذي ملك قلبها. لم يكتمل الحب بوجود مجرمين كجارم ناظر الكلية، من أعمته الغيرة من مالك وجعلت منه ذئبًا كاسرًا يفترس قلب ولحم العذارى.

ولتأكيد الطابع الرومنطيقي لهذه الرواية ننقل ما جاء على لسان مالك صفحة (60) من الرواية حيث يقول :

"تعاقبت السنون الطويلة، وأنا أذهب كلّ ليلة في العتمة الكثيفة إلى ذلك الضريح البعيد لأسهر فوقه مع من احتواها التراب... أسهر معها لئلا تحسّ بسأم العزلة، وضيق الوحدة، في ظلمة القبور الساكنة. أبقى فوق الضريح أحرسه، تخاطب روحي من في داخله.. وسكينة ترمي الرهبة في نفسي مع ظلام الليل البهيم، ووشوشة الأوراق في الشجر تناجي القمر وهو يرفل في ثياب الضباب وتغطيه جدائل الليل" ...

يذكرنا الطابع الرومنطيقي لهذا النص بما جاء من تداعيات في مقدمة فيكتور هيجو لمجموعته التأملات "Les Contemplation" المنشورة عام 1856 حيث يقول:

"ما هي التأملات؟ إنها ما يمكن تسميتها – إذا لم يكن هناك ادعاء آخر – مذكرات نفس. إنّها، في الحقيقة، كلّ الانطباعات وكلّ الذكريات والحقائق والأطياف الغامضة الضاحكة أو المكتئبة التي يمكن أن يحتويها ضمير... معادة مستذكرة، شعاعًا إلى شعاع، وزفرة إثر زفرة ومتداخلة في نفس الضبابة المظلمة. إنّها الوجود الإنساني من لغز المهد إلى لغز اللّحد. إنّها النّفس التي تتدرج من ضوء إلى ضوء، تاركة وراءها الشباب والحبّ، والتوهّم والصراع واليأس.. وتقف مشدودة على ضفة اللانهاية ... كلّ ذلك يبدأ بابتسامة ويستمرّ بالنحيب، لينتهي إلى صوت البوق القادم من الهاوية"[4]

ومن اللافت في هذه الرواية أن الكاتب قد أحسن استخدام رمزية أسماء الشخوص، فلجأ إلى تقنية المفارقة الساخرة الرمزية (symbolic irony) في رسم (نوال) التي نالت

[4] انظر: ياسين الأيوبي، مذاهب الأدب: معالم وانعكاسات (دار العلم للملايين، 1984) ص 149.

من البؤس والشقاء ولم تنل سعادة الحب المنشودة في هذه الحياة بل نالت الموت بفعل ما طرأ على حالها بعد جريمة اغتصابها.

كذلك فإن (مالك) لم يتسنّ له أن يمتلك محبوبته في الحياة نتيجة موتها بالانتحار وإنما امتلكها في إخلاصه لها ووفائه لذكرى حبه لها بعد وفاتها، فهو مالك لقلبها في الحياة ولذكراها بعد موتها. كما أنه المالك لحق الغفران والصفح عن (جارم) الجاني، هذا الذي يخرج من القبر على شكل هيكل عظمي طالبًا الصفح من مالك:

"لن أتركك يا مالك حتى تصفح عني، أنا جارم !!! جئت إليك لأريك جزاء جريمتي، علّ في ذلك ما يدفعك إلى الصفح عني، فتذهب نقمتك ويزول سخط الله وغضبه،... لقد قطعت حبلكما أنت ونوال بسيف الجريمة، وكنت في دنياكم واحدًا من آلاف المجرمين الذين يظنون أن الله في غفلة عن عبثهم بالضحايا البريئة... " (ص 63).

لقد تناول الأديب يوسف ناصر في هذه الرواية العنصر الفوق طبيعي أو الخارق للطبيعة (supernatural) حين اقتحم قبر (جارم) بينما هو هيكل عظمي يتعذب في قبره جرّاء ما اقترفه من إثم، وبذلك فقد عالج قضية الانتقام الإلهي لا سيما حين جعل جارمًا يموت شابًا في الحياة الدنيا ويتعذّب عذابًا أليمًا في الآخرة، مما يشير إلى الأثر الديني في أدب ناصر.

ب- المقالات:

للأديب يوسف ناصر مقالات ذات روح شعورية عقلانية. صدر له في هذا المضمار كتاب نثري آخر تحت عنوان "ورق ورحيق"، وتصدر مقالاته عن العاطفة، وتجسّد ما في نفس الأديب من المبادئ والأفكار والعواطف النابعة من المحبة الكامنة في نفسه لأخيه الإنسان. وقد جاءت لغة يوسف ناصر في هذا الكتاب شعرية في أسلوبها، حيّة في طبيعتها النفسية، تلفّها روح الإيمان، وتحييها المحبة التي لا تسقط أبدًا.

وفي مقالة "أيها السائرون في طريقكم إلى الغربة "، يتحدث الكاتب عن الوطن والوفاء له بالدعوة إلى البقاء فيه وعدم التفكير بالغربة عن هذا الوطن الجميل، ويقول في هذا الصدد:

"لماذا لا تتخذون من السيد المسيح أمثولة حسنة لكم في حسن الثبات على الإيمان، والصبر على المكاره، إذا أدلهمّ الليل واعصوصب الشر يومًا..!! وليكن واحدكم في هذه الحياة مسيحًا حاملاً صليبه على كتفيه دائمًا، فيصبر على الآلام والمسامير والطعن والضرب والجلد واللّكم والخلّ من أجل البقاء والوفاء للوطن الحبيب الذي وهبه الله لكم إلى أن يأتي الخلاص لهذا العالم.. !!" (ص14).

وبهذا يؤكد الكاتب بأنه ليس ثمّة مكان أغلى من الوطن، فحب الوطن أقوى من كل منطق لأنّ الرجل مدين للوطن بروحه كما قال سقراط.

ويقدّم يوسف ناصر في كتابه هذا وصفة لبلوغ السعادة التي نبحث عنها في هذه الحياة، ناصحًا باتباع طريق الربّ والسعي إلى الكمال في القيم العظيمة، والتسامح والصفح عن ذنوب الناس، وهذا في نظره يتأتّى عن طريق محبة الناس جميعهم، يقول:

..."أحب الناس جميعهم.. ليس في الدنيا شيء تمنحه للناس أعظم من المحبة.. وليس في الأرض مثل المحبة شفاءً لأمراضك الكثيرة.. المحبة تمحو بيديها جسدك.. وتقتل كبرياءك.. وتنفي يأسك.. وتزيل خوفك.. وتنقيك من خبثٍ واضطراب وقلق.. وتريحك من كل عداوةٍ..

إنها تطهّرك من كلّ أوجاعك الروحانية، وتعيدك طفلاً بريئًا كما كنت قبل أن تمرض.. وتنزع بيديها كل آلامك من صدرك وتلقيها من النافذة إلى ركام الأقذار !! (ص21).

وفي كلام الكاتب هنا صدى لما جاء في رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنتوس (5- 4:13) بأن "المحبة حليمة مترفقة، المحبة لا تعرف الحسد، ولا العجب، ولا الكبرياء، ولا تفعل السوء ولا تسعى إلى منفعتها". ويبدو أيضًا أن الكاتب متأثر بما جاء في إنجيل يوحنا (8:4) بأن "من لا يحب لا يعرف الله، لأن الله محبة". وهذه المعاني تعكس أيضًا قول بوذا بأن المحبة وعمل الخير هما أكبر قوى العالم". لا شكّ أن الأديب يوسف ناصر متأثر ومعجب

بالأدب الجبراني، وهو حين يسوق هذا الحديث عن المحبة ويعبّر عما يجيش في صدره بشأنها، فإنه يذكرنا بقول جبران خليل جبران في كتاب "النبي": "كما أن المحبة تكللكم، فهي أيضًا تصلبكم. وكما تعمل على نموّكم، هكذا تعلمكم وتستأصل الفاسد منكم ..

المحبة تضمّكم إلى قلبها كأغمار الحنطة، وتدرسكم على بيادرها لكي تظهر عريكم. وتغربلكم لكي تحرّركم من قشوركم. وتطحنكم لكي تجعلكم أنقياء كالثلج. وتعجنكم بدموعها حتى تلينوا، ثم تعدّكم لنارها المقدّسة، لكي تصيروا خبزًا مقدسًا يقرّب على مائدة الربّ المقدّسة".

ولا بدّ لنا أن ننوّه هنا بأن الكاتب يتعرّض لنمط آخر من أنماط الحُب، هو النمط المسيحي الذي نطلق عليه عادةً اسم الأجابية Agape حيث أن "الأجابية المسيحية هذه لا تعني الاستغراق في الله، أو الاقتصار على محبّة الله، بل هي تعني أيضًا حبّ القريب، والإحسان إلى إخوتنا في الإنسانية. ولعلّ هذا ما عبّر عنه يوحنا الرسول حينما كتب يقول: "إنْ قال أحد إني أحب الله، وأبغض أخاه فهو كاذب: لأن من لا يحب أخاه الذي أبصره، كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره؟ وإذن فإن الوصية المقدمة لنا هي أن من يحب الله يحب أخاه أيضًا".

(الرسالة يوحنا الأولى: 21- 20). وهكذا نعود فنؤكد أن الله لا يريد منا مناجيات صوفية حارّة نوجهها إليه، أو عبارات روحية شاقة نجترّ فيها اسمه، وإنما هو يريد منا أولاً وبالذات أن نكون من إخوتنا من الإنسانية بمثابة "أجابية" عاملة تأسو جراحهم، وتمسح دموعهم، وتأخذ بأيديهم".[5] وهذا ما رمى إليه الكاتب في كلامه عن المحبّة.

ومن أهمّ ما يتطرق إليه الأديب يوسف ناصر في كتابه الحث على الإحسان إلى الناس يقول: "أحسن إلى الناس من نعمة الله عليك دون فرق في الدين والعرق والجنس.. لأنه ليس

[5] د. زكريا إبراهيم، مشكلة الحب (مكتبة مصر، 1984)، ص 163- 164.

كالمعروف يُردُّ إليك أضعافًا من محبتهم.. واعمل كل صالح من الأعمال لتبقى في هذا العالم حيًّا بأعمالك، وإن حملوك في النعش يومًا إلى القبر العميق.. !" (ص 22).

ويحذرنا ناصر من الظلم وعواقبه قائلاً: "حذار حذار أن تظلم أحدًا، ولا تنسَ ساعةً واحدةً أن عين الله في السماء لا تنام أبدًا عما يفعله الظالمون في الأرض! " (ص 23-22). وهذا يجعلنا نتذكر ما جاء في الآية الكريمة: " ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار". (إبراهيم: 42)

وكلّ هذا يشير إلى النزعة الإنسانية لدى الكاتب انطلاقًا من كونه إنسانًا مؤمنًا بالعدالة، الإلهية من حيث أنه يرى ويشعر بقدرة الله على الظالم الذي لا بد أن ينال يومًا جزاء ظلمه.

ونستنبط من خلال ما جاء في كتاب "ورق ورحيق" أن الكاتب يستلهم ويتبع في الحياة أمهات الأخلاق الأربع (وفقًا للغزالي) وهي الحكمة والشجاعة والعفّة والعدل. ففي حديثه عن الشباب وأيامه، يتخذ من العفّة والعفاف منهجًا له ملمّحًا إلى الشباب جميعًا أن يتبنّوه حيث يقول: "كم استمتع بصحبتك أيها الشباب.. ! أعظّمك وأمجّدك.. غير أنني كما تعلم، لا أرضى أن تأخذ مني سيادتي على جسدي يومًا.. وتجعلني عبدًا لخادمي هذا.. وتقيم نفسي أمة لدى جارية عندها.. ذلك كي لا تدخل الشهوات والخطايا منزلي، وتأخذني معها مغلولاً إلى الأسر، مثلما أراها تدخل منازل كثيرة وتخرج، ووراءها جمع غفير من الأسرى الذين أوثقت أيديهم بالحبال، وشدّت أفواههم بالنعال، وسارت بهم إلى هلاك نفوسهم في القفرة الجرداء". (ص30).

ويتحدث الأديب يوسف ناصر في هذا الكتاب بكثير من الحرارة عن استقامة قلمه، وبعده عن الاعوجاج في التعبير عن آرائه ومواقفه وأفكاره، في سبيل الحق والعدل والسلام حيث يخاطب قلمه قائلاً: "... لا أرضى بك معوجًّا في يدي.. بل مستقيمًا تنطق بالحق وتبشّر بالسلام وتكرز بالمحبة بين الناس" (ص39).

ويشدّد الكاتب على كون قلمه صادقًا صريحًا يفرز ما في قلبه من مكنونات، لا يعرف الكذب أبدًا ولا يرضى أن يكون مأجورًا لأحد مهما كان الثمن .

ويضع الأديب القلم في منزلة القداسة من حيث كونه أنف الضمير الذي يجب ألاّ يحيد عن مبدأ الحق والعدل، ويرتفع بالإنسان إلى أرقى المراتب .

وفي مقالة أخرى من مقالات كتاب "ورق ورحيق" يُعلي الكاتب من مكانة المعلّم في هذا العالم لا سيّما وأن السيد المسيح قد ناداه تلاميذه "يا معلم"، فتشرّف اللقب به وتقدّس، مما يدلّ على مدى تقدير واحترام الكاتب لدور ورسالة المعلّم في الأمة داعيًا المعلمين إلى محبة تلاميذهم، والأطفال إلى طاعة وإكرام معلميهم، لأنه ليس في الألقاب كلقب المعلم رفعةً، فهو الذي ينشئ العقول قويمة على قبس تعاليمه وهدي بصيرته، ويبني النفوس قوية، صلبة الإرادة والعزيمة، تتفجّر في كوامنها طاقات من الإبداع والخير والجمال.

وكلّ هذه المعاني يصوغها الكاتب بلغة بليغة رقراقة تتّصف بالسلاسة والانسياب مما يُدخل المتعة الأدبية إلى نفوس القرّاء، لا سيما أنه الأديب الذي يعتمد الأصالة والتجديد في لغته الراقية وأسلوبه المتوهج .

وبعاطفة جياشة يتناول الأديب يوسف ناصر موضوع الأمومة ومنزلة الأم في هذه الحياة مُشدّدًا على أهمية الأم وإكرامها في حياتها وبعد وفاتها، فهي "المعلمة الأولى التي وحدها تعلّم طلابها بغير أقلام وكتب في هذا العالم.. ! لكنها مسكينة هي، وما ذنبها خُلقت سبيّة في هذه الحياة وظلم تقاليدها، وما كانت على شيء من الجهل والتقصير أو العلم والنجاح يومًا، إلّا بما أرادت لها الحياة أن تكون، إن خيرًا وإن شرًا.. !! إن الأم أمّة عظيمة بعظمتها، وعاجزة بعجزها، ولست أرى بين الأمم جهلاً كجهل أمة تحشد في ميادين القتال جيشًا مدجّجًا في السلاح والعتاد، قبل أن تحشد لذلك جيشًا من الأمهات المدجّجات في العلم والثقافة" (ص 100).

إن في هذا النصّ إشارة تؤكد على أنّ الأمومة رسالة المرأة على هذه الأرض، وشأنها الأول في الحياة، وهي حجر الأساس في الأسرة، وقواعد المجتمع وأركانه.

ولا يفوته في هذا الكتاب أن يهيب بالناس أن يقبلوا على قراءة الكتب النفيسة، للخروج من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة، والدخول في حدائق المعرفة الناضرة وخمائلها الزاهرة، لإيقاظ المواهب وتهذيب الطباع والتخلص من الآفات والأسقام المتفشية في نفوس البشر. ويرى بأنّ مطالعة نفائس الكتب "سياحة ممتعة في أجمل بلاد الدنيا" (ص 117).

وفيما يتعلق بالكتاب النثري الثاني للأديب يوسف ناصر، والذي يحمل عنوان "قلائد العقيق" فإنه لا يختلف كثيرًا عن كتاب "ورق ورحيق" من حيث ماهية المواضيع المطروقة، فهو يشبهه إلى حدٍ كبير في النكهة الأدبية والذوق الراقي المتحضّر، إلا أنه يمتاز بثراء مقالاته في الاستعارات الجميلة الأخّاذة بإيحاءاتها وتداعياتها الحسّية والذهنية. فالنص في هذا الكتاب يلجأ إلى الاستعارة بشكل أساسيّ، وقد وردت الاستعارة في النص بحضور لافت، ففي مقالة "لبنان لن ينطفئ" نقرأ النص التالي الحافل بالاستعارات والإشارات ذات الدلالات التراثية المسيحية من الإنجيل التي تتكرر كثيرًا في مقالات هذا الكتاب:

"لبنان، لو ساقوه إلى ألف جلجلة تحت الضرب واللّكم والرّفس، ودقوا المسامير بيديه ورجليه ورفعوه على ألف صليب، يخرج لبنان من قبره يصنع المعجزات للدنيا، ويضع الموت في نعش، ويحيي الأموات من الحكّام.. ويشفي الخُرس في الأمة الخرساء، والعُمي في الشعوب العمياء، لأن لبنان توأم الأبد.. وعلى الرغم من الصلب أزلي هو، يخرج من القبر حيًا ولا يموت" !..

وفي مقالة "هنا دفنوك يا قلبي" يختم الكاتب مقالته بالكلمات الموحية: "نامي، ميّ، ممجّدة في الأخدار السماوية، ولا تجزعي، ورفّهي عن قلمك المضنى وروِّحيه! يا نبعة الأدب، ونفحة الحقب، إنّ قبرك الشذيّ قارورة طيب تحت الثرى، أرى نيسان كلّ عام يقف على بابه ليأخذ منه عطرًا لروابيه ومجاجًا لأزاهيره..! لست وحدك في هذا العالم من كذب الناس عليه، وخذلوه، وأنكروه، وعيّروه، ولم يحفظوا له جميلاً، بل جازوه عن معروفه شرًا!..

حسبك في أسبوع الآلام، أسوة بالسيد المسيح الذي يصلبه الناس كل يوم منذ ألفي عام، وهو القائل دائمًا: " يا أبتاه، اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (ص 37).

وهنا نرى الاستعارة احتلّت مساحة لا بأس بها من جسد النصّ وأسندت غالبيتها إلى معاناة وآلام المسيح كما وردت في الإنجيل. وفي هذا يكون الكاتب قد خرج عن النظام اللغوي التقليدي مستعينًا بالمجاز ليعبّر عن آرائه وتطلعاته في أسلوبه اللغوي التجديدي الفريد من نوعه، فبدت الاستعارة سائدة في النص، واستعملها الكاتب "للتعبير عن تأثر وشعور تريد المشاركة فيه"[6] فخاطب العقل والإدراك بوساطة الخيال كما يظهر أيضًا في النص التالي من مقالة "من بالشراب إذا عطش القلم ":

"يا أخوة الكلمة في هذا العالم ! متى كانت كؤوس الأدب لذيذة وحلوة المذاق، إذا لم يملأها القلم من عصارة العاطفة، وقطر الروح ؟! (ص 7).

ويتابع الكاتب في المقال ذاته: "أيتها العاطفة الزّخّارة، من لي بالشراب دونك إذا عطش القلم؟ تعالي أسعفيني وترفّقي بي! وادهني دائمًا بشعرك كلماتي من طيبك الفوّاح، وأسرعي إليّ إذا صرخ القلم وناداني الحرف من شدة العطش" (ص9).

والاستعارة السائدة هنا قد "أضفت صورًا نقلت الدلالات الخصوصية للكلمات إلى دلالات أخرى لا تناسبها إلّا بفضل تشابيه ينسجها الخيال الإنساني" (ص7).

ويغلب على عدد لا بأس به من مقالات هذا الكتاب الطابع الوعظي، لطيف المعنى والمبنى واللفظ، حيث نسمع الكاتب في مقالة "يوم تغدو شيخًا" يقول: "يوم تغدو شيخًا، كن شبابًا نضيرًا، وإن ولّى الشباب ومضى، وإن وهنت قواك وفترت، وغدوت بين الناس تتوكأ على عصا ! فاعلم أن الشباب يكون في الروح دائمًا أكثر منه في الأجساد، وفي الأمل أعظم منه في صلابة الأبدان، وفي العزم أحسن منه في قوّة الأجسام. رُبّ شاب في عجوز، وعجوز في شاب وثّاب العزم والأمل. فكن هذا، ولا تكن ذاك، واستمتع بكل ساعة من حياتك، لأنها فرصة لن تعود" (ص41).

---

[6] ميشال لوغورن، الاستعارة والمجاز المرسل، ترجمة حلا صليبا، مراجعة هنري زغيب) بيروت، باريس، منشورات عويدات، الطبعة الأولى، 1988)، ص 146 .

كما ويبرز هذا الطابع الوعظي بوضوح في مقالَتَيْ "هات اسقني، يا قلم" (ص44) و"أيها الآباء، أين أنتم؟!" (ص47)[7].

أمّا في مقالة "قلبي ويا غمد الخناجر! (حديث المرأة)"، فيبدو أثر الخلفية المسيحية بوضوح حين يقول على لسان امرأة: "لقد شرفني الله من دون سائر الخلق بأن جعلني وعاء أجمل للعالم رسله وأنبياءه، ومجّدني واختارني إناء لروحه القدسية في مريم العذراء، يوم تجسّد وتأنّس، فحملت بيسوع الناصري كي يحمل الخلاص لهذا العالم!" (ص60).

علاوة على ذلك، يبرز في مقالات عديدة أخرى كانت قد نُشرت في الصحف ولم يتضمنها كتاب بعد النزعة الإنسانية لدى الكاتب وإيمانه بالإخاء الإنساني دون تمييز بين بني البشر على اختلاف انتماءاتهم وأطيافهم وشرائحهم، حيث يقول في إحداها: "كلنا يا أخي أبناء لله على الأرض، وإن أبناء الأب الواحد أخوة هم، وإن اختلفت ألوانهم، وتنوعت أجناسهم، وتعددت دياناتهم! أيطيب للأب أن يسفك أحد أبنائه دم أخيه، أو يلقيه في العراء مع المنكوبين في هذا العالم".

[7] د. سامي ابو شاهين، النثر العربي في عصر النهضة (بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 2010)، ص 372.

خلاصة :

صحبنا الشاعر والأديب يوسف ناصر في رحلته الأدبية والفكرية عبر كتبه: "ومضات وأعاصير"، "ضريح الحسناء"، "ورق ورحيق"، و"قلائد العقيق"، وقد تميزت أعماله على المستوى اللغوي بعذوبة تعبيرية، تميّزت بها أشعاره وقصصه كما مقالاته، تستقي من عاطفة صادقة فيّاضة، تؤثّر في النفس تأثيراُ شديدًا، ولمسنا رحيق اليقظة العقلية والروحية على ورق المنطق والفكر والبيان، وفُتنّا بجمالية قلائد العقيق، وكلّ ذلك من خلال البثّ الشجيّ من روحه وتلك السهولة الممتنعة في التعبير عن عاطفته وفكره، حيث تعطينا كلها صورة عن شخصيته الطيّبة ومشاعره الإنسانية النبيلة كشاعر وأديب وإنسان، ينتفض فيه مزاج الأديب الحسّاس ليفيض بريقًا ونورًا وعبيرًا في حدائق البيان ليكون بذلك أديب السلاسة والسهولة والعذوبة.

ببليوغرافيا

1. **القرآن الكريم**.
2. إبراهيم، زكريا. **مشكلة الحب**. القاهرة: مكتبة مصر، 1984 .
3. أبو شاهين، سامي. **النثر العربي في عصر النهضة**. بيروت: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، 2010
4. الأيوبي، ياسين. **مذاهب الأدب: معالم وانعكاسات**. د.م: دار العلم للملايين، 1984 .
5. بوري، متى سمعان وشبل يوسف أحمد. **عكا تراث وذكريات**. ط2. بيروت: د.ن، 1994.
6. جبران، جبران خليل. **النبي**. بيروت: د.ن، 1998 .
7. الربيعي، محمود. **قراءة الشعر**. القاهرة: د.ن، 1995.
8. الريشة، محمد حلمي. **معجم شعراء فلسطين**. رام الله، فلسطين: د.ن، 2003 .
9. شاهين، أحمد عمر. **موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين**. دمشق: د.ن، 1992.
10. **العهد الجديد من الكتاب المقدس** .
11. الفاخوري حنا. **الجامع في تاريخ الأدب العربي**. بيروت: د.ن، 1986.
12. لوغون، ميشال. **الاستعارة والمجاز المرسل**. ترجمة حلا صليبا، مراجعة هنري زغيب. بيروت: منشورات عويدات، 1988 .
13. **معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين**. الكويت: دار القبس، 1995.
14. ناصر، يوسف. **ضريح الحسناء**. عكا: مطبعة أبو رحمون، 1981 .
15. ناصر، يوسف. **قلائد العقيق**. بيروت: د.ن، 2011 .
16. ناصر، يوسف. **ورق ورحيق**. رام الله: د.ن، 2008
17. ناصر، يوسف. **ومضات وأعاصير**. عكا: د.ن، 1980.
18. **نداء الجذور**، قصائد فلسطينية. (إصدار رابطة الكتاب والأدباء الفلسطينيين في إسرائيل). شفاعمرو: دار المشرق، 1988 .